الروح وماهيتها

للسيد محمد الحريري

— ٣ —

عالم الأمر — الحقيقة المحمدية — وحدة الوجود

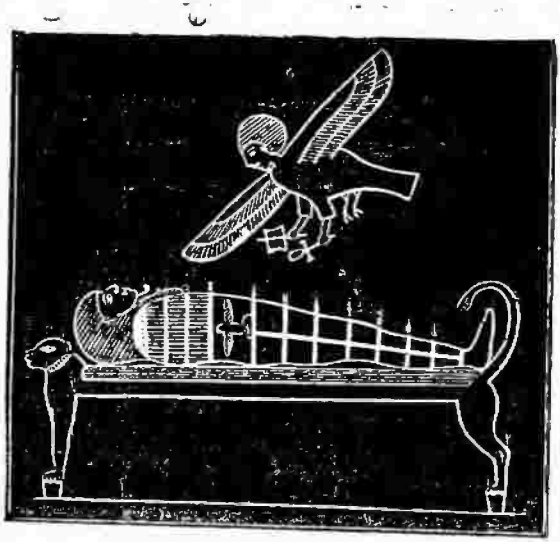

(صورة خيالية تمثل الروح عند قدماء المصريين)

عالم الأمر

قدمنا فى العدد الماضى من هذه المجلة الكلام على الروح من حيث اتصالها بالكهرباء والأثير، والروحانية الحديثة ، والآراء الصوفية . والآن نتكلم عن عالم الأمر وهو أحد العوالم الثلاث التى شرحناها سابقاً .

اختلف علماء الصوفية فى فهم عالم الأمر ، وحق لهم هذا الاختلاف لدقة الموضوع من جهة ، واختلاف فهم كل عن الآخر ، وتنوع استعداد كل شخص فيما أهل له من التجلى والإلهام المقدر له ، مما يتوهمه أنه عالم الأمر .

فقد ذكر الإمام عبد الكريم الجيلى فى كتاب « الإنسان الكامل » عند تفسير قوله تعالى (وعنده أم الكتاب) أن هذه العندية هى عبارة عن ماهية كنه الذات ، المعبر عنها من بعض وجوهها بماهيات الحقائق التى لا يطلق عليها اسم ولا نعت ، ولا وصف بوجود أو عدم أو حق ، أو خلق . والكتاب هو الوجود المطلق الذى لا عدم فيه وكانت ماهية الكنه أم الكتاب ، لأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف فى الدواة التى بها المداد فكذلك ماهية الكنه لا يطلق عليها اسم الوجود ولا اسم العدم لأنها غير معقولة ، والحكم على غير المعقول أمر محال، فلا يقال بأنها حق ولا خلق ولا عين ولا غير ، ولكنها عبارة عن ماهية لا تنحصر بعبارة إلا ولها ضد لتلك العبارة من كل وجه ، وهى الألوهية باعتبار ، وباعتبار آخر هى محل الأشياء ومصدر الوجود . والوجود فيها بالفعل، ولو كان العقل يقتضى أن يكون

الوجود فى ماهية الحقائق بالقوة ، كوجود النخلة فى النواة ، ولكن الشهود يعطى الوجود فيها بالفعل لا بالقوة للمقتضى الذاتى الأهلى ، لكن الأجمال المطلق هو الذى حكم على العقل بان يقول إن الوجود فى ماهية الحقائق بالقوة بخلاف الشهود ، لأنه يعطيك الأمر المجمل مفصلا على أنه فى نفس هذا التفصيل باق على إجماله ، وهذا أمر ذوقى كشفى شهودى ، لا يدرك بالعقل من حيث نظره المقيد ، لكنه إذا وصل إلى ذلك المحل ، وتجلت عليه الأشياء قبلها وأدركها كما هى عليه — يقصد هنا الأستاذ الجيلى أن هذا الفهم الشهودى هو بذات الروح الذى ليس للعقل فيه مجال ، لأنه جمع بين الأضداد ، والعقل ينزوى عند ذلك و يتلاشى هو وسائر ذرات الجسم تحت سطوع شمس ذات الروح ، ولكنه لا يمكنه تكران ما علمه أخيراً بعد عودته لحالته الطبيعية ، فان ماشاهدته الروح يكسب العقل حقيقة ما شاهدت ، وهذا إذا قاسه بقوانينه وجده لا ينطبق عليها ، وهنا يفهم علما بحاسة أخرى خارجة عن قيود العقل ، وهذا سبب الخلاف بين أهل الشهود والكشف ، كما سماهم الصوفية ، وهم أصحاب الانطلاق الروحى عند الروحانية الحديثة ، ونفس هذا الكشف وهذا الانطلاق يختلف باختلاف علم كل واحد ، فيختلفون فى تصويره نتيجة الفهم .

ثم ذكر الجيلى أيضا فى تفصيل روح القدس أن روح القدس هو روح الأرواح ، وهو المنزه عن الدخول تحت حيطة كن ، فلا يجوز أن يقال فيه إنه مخلوق لأنه وجه خاص من وجوه الحق قام الوجود بذلك الوجه فهو روح لا كالأرواح ، لأنه روح الله ، وهو المنفوخ منه فى آدم . وإليه الاشارة بقوله تعالى « ونفخت فيه من روحى » فروح آدم مخلوق وروح الله ليس بمخلوق ، فهو روح القدس أى أنه الروح المقدس عن النقائص الكونية ، وذلك الروح هو المعبر عنه بالوجه الأهلى فى المخلوقات أى أمر الله « فأينما تولوا فثم وجه الله » لأنه عبارة عن الوجه الأهلى القائم بالوجود ، فذلك الوجه فى كل شىء هو الأمر الأهلى السارى فى جميع الارواح ، إذ أن لكل شىء من المحسوسات روحا مخلوقا قامت به صورته ، فالروح لتلك الصورة كالمعنى للفظ ، ثم إن لذلك الروح المخلوق روحا إلهيا قام به ذلك الروح ، وهى صفة قيومية الحق فى الخلق ، ومن هنا أخطأ بعض الفلاسفة الأقدمين فى فهم هذه الحالة ، لأنهم عند ما تبين لهم أن الله مطلع على كل شىء فى ذرات الوجود ، وفى أنفسهم قرروا بقيد أفكارهم أن الله هو حقيقة سارية فى كل شىء ، مطلعة على كل شىء ، بحالة يشتم منها رائحة الحصر والتقييد ، معتقدين أنهم وصفوا الله بأعلى وصف ، مع أن هذا مناف للتنزيه المطلق الخارج عن كل قيد وفقط لمحوا وجها من أوجه علم الروح المتصل بعالم الأمر بحالة متلبسة بين اطلاق فهم الروح وقيد فهم العقل ، فكانت النتيجة هذا التشبيه المنافى للصفات القدسية الإلهية ، وهذا غاية

ما يمكن أن يصل اليه المتجول بعقله فى الألهيات ، دون الاستناد إلى تبع وحى منزل على لسان نبي مرسل ، للخروج من قيد الجسمانية كلية ، والفهم بالتلقى الروحى على طريقة حضرات الأنبياء صلوات الله عليهم ومن اقتدى بهم من كمل أهل التحقيق العلماء بالله ، الوارثين لحضرات الأنبياء .

وقد أجمع محققو الصوفية ومعهم الامام محي الدين بن العربى على أن الملك المسمى بالروح والمسمى فى اصطلاحهم بالحق المخلوق ، والحقيقة المحمدية قد نظر الله تعالى إلى هذ الملك بما نظر به إلى نفسه ، فخلقه من نوره وخلق العالم منه ، وجعله محل نظره من العالم ، ومن اسمائه أمر الله وهو أشرف الموجودات وأعلاها مكانة وأسماها منزلة ليس فوقه ملك ، وهو سيد المقربين ، وأفضل المكرمين ، أدار الله عليه رحى الوجود ، وجعله قطب فلك المخلوقات ، له مع كل شيء خلقه الله تعالى وجه خاص به ، ومنه خلقت الملائكة جميعا ، فنسبة الملائكة اليه كنسبة القطرات إلى البحر . هذا هو المعبر عنه بالحقيقة المحمدية عند الصوفية ، والوارد فيه حديث سيدنا جابر ، لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أول ماخلق الله يارسول الله ، قال « نور نبيك ياجابر » .

الحقيقة المحمدية

الحقيقة المحمدية وهى ما يمكن أن يتعقل من صدور الأمر الألهى فى أول الظهور ، وهذه الحقيقة لها طرفان ، طرف غير معقول ، وهو المتصل بالحق سبحانه وتعالى ، وطرف معقول تعقل وهى لا يمكن تحققه على وجه تام ، وقد يعبر عنه بالروح الأعظم وهو الروح الانسانى مظهر الذات الألهية من حيث ربوبيتها . ولذلك لا يحوم حولها حائم ولا يروم حولها رائم ، ولا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد يعبر عنه بالعقل الأول أو النفس الواحدة ، أو الروح الكلية المقابلة المادة الكلية الأصلية ، وإن كانت هذه فرع تلك ، بواسطة الابتداع الألهى فى أول الخليقة ، وهى المعبر عنها بجوهر الهباء المعقول ، أصل أصول المواد ، وقد يطلق عليها أيضاً الحقيقة الاسمائية ، وهو أول مخلوق خلقه الله ، وهو الخليفة الأكبر ، والجوهر النوراني ، معنى ما جاء فى حديث سيدنا جابر الأنصارى السابق ذكره وقد يسمى باعتبار الجوهرية نفساً ، وباعتبار النورانية عقلا أولا ، وكما أنه له فى العالم مظاهر كثيرة وأسماء متعددة كالعقل الأول والقلم الأعلى ، والنور الذاتى السارى فى كل الممكنات بلا حصر ولا تقييد عن حكم ماهيته فله فى العالم الصغير الأنسانى مظاهر وأسماء بحسب مظاهره ومراتبه فى اصطلاح الصوفية وغيرهم « كالسر ، والخفاء ، والأخفي ، والروح والمريان ، والقلب ، والكلمة والروح ، والفؤاد ، والعقل ، والنفس الخ »

وإن حقيقة الروح الأنسانى هى من هذا النور أول ماظهر من الأمر الأهى الممكن توهمه وادركه بنفس ذات الروح إدراكا إشرافياً ، لاإحاطياً يقابل إشراف العقل على مبدإ سر الروح وعجزه عن استيعاب ماهيتها كما سبق التقرير فى أول المبحث ، وهـذا الأشرف يختلف باختلاف أصل الفطرة الروحية وصفائها وقربها واتصالها من هذا النور المخلوق المواجه للحق المطلق ، مواجهة خارجة ، طبعاً عن التعينات الأمكانية .

ومن هنا يفهم معنى صلاة الامام ابن مشيش أستاذ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما وما سبحت فيه روحه الشريفة واتصالها بهذا النور إذ يقول « اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فاعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء إلا وهو به منوط ، إذ لو لا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط صلاة تليق بك منك إليه ، كما هو أهله ، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك » ، إلى أن قال « وزج بى فى بحار الأحدية وانشلنى من أوحال التوحيد ، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ، ولا أحس ، إلا بها » وهى حالة وحدة الوجود المصطلح عليها عند الصوفية .

وحدة الوجود

وأصح تعبير لها هى « وحدة الشهود » لا وحدة الوجود ، أى وحدة شهود هذا الرائى لاتصال روحه بهذه الحقيقة المحمدية السارية فى كل شيء ، وقد يعبر عنها بحالة الجمع فى أولها وجمع الجمع فى نهايتها ، وهى مذلقة لكثير من الصوفية الذين لم يتموا سبحاتهم ، أو الفلاسفة الذين لم يستندوا برحمة إلهية في كنف شريعة سماوية ، ولذلك توهم كثير منهم صفة الحلول والاتحاد وتفوهوا بكلمات لا تنطبق على الحق فى شيء ، حيث تسرعوا فى ابتداء هذا المشهد قبل أن يتحققوا بكل مراميه ، وفاتهم أنه ماهو إلا تحقق علمى برجوع فرع هذا النور الجزئى إلى أصله الكلى كما كان قبل اندماجه فى الماديات ، والحال أنه لم يزل مرتبطا بمادته ، ومهما دق خيط هذا الارتباط فلا سبيل لتطبيق علم رؤيا الروح لهذا النور الأول على فهم عقل المادة ، بعد ايجاد هذا العالم المادى إلا بضرورة الخلط مابين إطلاق فطرة الروح ، وتقييد تعقل العقل الذى لا يمكن الخروج منه بتاتاً مادام فى قيد هذا الكون ، ولا يمكن التحقق لهذا النور الأول إلا بانفصال الروح عن الجسد والاتصال بعالمها ، وهذا لم يحصل لمن يريد التعبير عن كنه هذه الحقيقة ، ولو فرض وانفصلت روح وأرادت أن تخاطبنا بما هى فيه لخاطبتنا بحسب ما هى مستغرقة فيه ، و بتعبير يليق بذات الروح والأرواح المرتبطة بأجسامها ، فى معزل عن

هذا الفهم، إذ لكل عالم حكمه ، وهذا سبب الخلاف الواقع بين آراء الفلاسفة و بعض الصوفية الذين لم يتموا بعد التحقق من هذا المشهد ، وأما كل المحققين من الصوفية فقد اعطوا كل حالة حكمها ، فاصلين بين التشبيه والتنزيه ، جاعلين للروح حكمها من جهة فطرتها ، وعالمها المطلق ، وللعقل حكمه و علمه من جهة عالمه المقيد ، رابطين بينهما بالرابط الألهى ، الذى وجدوه كما هو من وجهتى الحقية والخلقية وهو المعبر عنه عند بعضهم بمقام الحيرة ، ومن نظر إلى الصراط المستقيم بين هاتين الحالتين لوجد حالة ثالثة ، هى الجمع بين نهاية العقل المتصلة ببداية الروح ، وفى هذه الحالة يكون ناظراً بالعينين عين العقل والروح، ومن ثم لا تكون حيرة مادام فى وسط الميزان نازلا إلى كل من الكفتين بحكم كل واحدة كما فصلنا ، وهذا هو المعبر عنه بحق اليقين ، عند كل المحققين .

محمد الحريرى — بالنيابة العمومية

التصوف فى الماضى والحاضر

عجباً يصير مدى التصوف هكذا ... شكا وريباً وامتهان معانى
ويبدل العلم الحكيم خرافة ... هزؤاً وسخرية الزمان الجانى
ورياضه تمسى كوادى بلقع ... خال من الأيكات والحلان
وشرابه العذب اللذيذ كأنه ... سم زعاف لا سلافة حان

* * *

فعلى التصوف والطريق تحية ... وعلى سنين قد مضت وزمان
وعلى أهيل العلم أرباب الوفا ... من شيدوا أركانه بأمان
ضاع التصوف طعمة وضحية ... للمدعين جماعة الخسران
وجماعة لا يفقهون حديثه ... دخلوا بضعف عزيمة ودهان
وجماعة تخذوا المظاهر حرفة ... تركوا اللباب وأمسكوا بمبان

* * *

دخل الدخيل عليه لا عن رغبة ... فيه ولكن سيق بالاحسان
يا ويلهم قد أفقدوه رواءه ... ومهابة الارشاد والتبيان
وبهم توارى نوره وجماله ... وجماله تشتاقه الثقلان
فالعيب من أهل الزمان وفعلهم ... مهما بدا بين الورى بهوان

علي سالم عمار